تاريخ البيمارستانات

فى الدول الاسلامية

من رسالة تحت الطبع

للاستاذ البحاثة الدكتور أحمد بك عيسى

هذا عنوان لرسالة قيمة وضعها العالم الجليل والبحاثة المدقق الدكتور أحمد بك عيسى ألقاها فى حفلة العيد المئوى لمدرسة الطب ومستشفى قصر العينى . وقد تفضل الاستاذ فأولانا شرف طبعها وتقديمها هدية لحضرات مشتركينا المحترمين : فنشكر له أريحيته ونبدأ الآن بنشر جزء منها آملين إتمامه إن شاء الله؟

المحرر

هذه كلمة ألقيها فى تاريخ المستشفيات وهى التى كان يعبر عنها بكلمة بيمارستان فى الدول الاسلامية من عهد دولة الخلفاء الراشدين الى عهد إنشاء مستشفى قصر العينى ، وهذه البيمارستانات كانت احدى المنشآت والعمائر كالمساجد والتكايا والقبور والقباب الخ ، التى كان يشيدها الخلفاء والسلاطين والملوك وأهل الخير على العموم صدقة وحسبة وخدمة للانسانية وتخليداً لذكراهم .

على أن هذه البيمارستانات لم تكن مهمتها قاصرة على علاج المرضى ، بل كانت فى نفس الوقت أمكنة لتعليم علوم الطب يتخرج منها الطلبة كما يتخرجون الآن من المدارس الخاصة .

معنى كلمة بيمارستان

البيمارستان (١) كلمة فارسية مركبة من كلمتين : بيمار بمعنى مريض أو عليل أو مصاب ،

(١) Vullers : Lexicon persico—arabicum

وستان وهى كلة اضافية تلحق آخر الكلمات فى اللغات الهندية والفارسية بمعنى دار أومكان أو محل ، والظاهر أن أصلها سنسكريتى فتكون كلة بيمارستان بمعنى دار المرضى أو بيت المرضى أو محل المرضى ، ثم اختصرت كلة بيمارستان للسهولة وسرعة التداول فصارت مارستان كما ذكرها الجوهرى ، ولقد كانت المارستانات فى بادئ إنشائها مستشفيات عامة تعالج فيها جميع الأمراض بين جراحية وطبية ورمدية وعقلية الخ ، الى أن أصابتها الكوارث ولحقها الخراب ، فهجرها المرضى وقفرت الا من المجانين ، وكادت كلة مارستان فى الأزمنة الأخيرة حتى عصرنا هذا لا تنصرف ـ اذا أطلقت ـ الا على مستشفى المجانين .

وقبل الشروع فى ذكر البيمارستان رأيت من الواجب أن أذكر كلة فى حالة الطب عند العرب فى مبدأ نشأتهم . ثم نذكر البيمارستانات وترتيبها ونظام المعالجة فيها وما كانت تؤديه من الخدمات فى نشر تعليم الطب والمراقبة المضروبة على الأطباء وامتحانهم وما كان يصرف على هذه المارستانات من الحبوس والهبات وحالة الأطباء فى ذلك الزمان وما كانوا يأخذونه أجراً للخدمة فيها وللعلاج الخاص ووظائف البيمارستانات فى الدولة ورتب رؤسائها ومكانتهم فى الهيئة العامة لموظفى الدولة الخ .

حالة الطب عند العرب فى مبدأ نشأتهم

قال القاضى صاعد بن أحمد الاندلسى « إن العرب فى صدر الاسلام لم تعن بشىء من العلوم الا بلغتها ، ومعرفة أحكام شريعتها ، حاشا علوم الطب ، فانها كانت موجودة عند أفراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طراً اليها فهذه كانت حالة العرب فى الدولة الأموية التى هى أول نظام دولى فى الاسلام بعد الخلفاء الراشدين » .

ولم تكن البيمارستانات وجدت فى الدولة الاسلامية الى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك سادس خلفاء بنى أمية فكان هو أول خليفة أنشأ البيمارستان ، غير أن بعض العرب كان قد هجر بلاده الى فارس أو الى الهند أو الى مصر وتلقى علوم الطب فى هاتيك البلدان ثم عاد الى بلاده لمعاناة مهنة الطب كالحارث بن كلدة الثقفى وابنه النضر بن الحارث بن كلدة فقد تعلم الطب كلاهما فى جنديسابور بلدة من مقاطعة خوزستان احدى أقاليم فارس وكعبد الملك بن أبجر الكنانى وكان فى أول أمره مقيما بالأسكندرية لأنه كان

المتولى التدريس بها بعد الاسكندرانيين ، وكابن أبى رمثة التميمى فقد كان جراحاً شهيراً وزينب طبيبة بنى أود فقد كانت خبيرة بالعلاج ومداواة أمراض العين والجراحات ، مشهورة بين العرب بذلك .

وهؤلاء كلهم من صميم العرب قد هاجروا بلادهم لتعلم الطب ثم عادوا لمعاناة مهنتهم بين بنى وطنهم ، وقد استطبهم النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون ، فلما اتسع ملك العرب وشعروا بالحاجة الى الأطباء لم يستنكفوا استخدام الأطباء من غير بنى جنسهم فاستطب الخلفاء الأطباء من السريان المسيحيين واليهود فاستطب خلفاء دولة بنى أمية ابن آثال الطبيب النصرانى ، اصطفاه لنفسه الخليفة معاوية بن أبى سفيان أول خلفاء دولة بنى أمية وأبا الحكم وحكم الدمشقى وتياذوق واستطب خلفاء الدولة العباسية غيرهم من الأطباء السريان واليهود فى مملكتهم .

فلما عظم ملكهم واتسعت دائرة فتوحاتهم صحت عزيمتهم على إنشاء البيمارستانات ودور التعليم فى بلادهم لتكثير عدد الأطباء سداً للحاجة المتزايدة اليهم ، فكان المنهل الصافى والمنبع العذب والعين الغزيرة التى وردوها لرى ظمأهم وشفاء غليلهم مدرسة جنديسابور وبيمارستانها فهى التى درت عليهم الأطباء والمعلمين والنقلة فى أول عهدهم ومبتدأ نهضتهم .

وبيمارستان جنديسابور هذا لم يكن من وضع العرب ولا من إنشائهم بل كان موجوداً قبل ظهور دولهم وإنما شملته فتوحاتهم ووقع فى كنفهم ، غير أننا سنتولى ذكره وتاريخ إنشائه فى مقدمة البيمارستانات لما كان له من اليد الطولى والمساعدة العظيمة والتسهيل الكبير على العرب فى النهوض بمدنيتهم .

أنواع البيمارستانات

كان للبيمارستانات نوعان « ثابت » و « محمول »

فالثابت ما كان عمارة ثابتة فى جهة من الجهات لا ينتقل عنها والمحمول هو الذى يحمل على الدواب الى أى ناحية من النواحى .

البيمارستانات الثابتة

كانت البيمارستانات تشيد فى أبنية وعمارات تختلف اتساعاً وعظمة تبعاً لخطر منشئها

والبلد التى تنشأ فيها من حيث الثراء والرخاء والخيرات التى تحبس عليها ، ومن البيمارستانات العظيمة البيمارستان العضدى الذى أنشأه عضد الدولة بن بويه ببغداد ، والبيمارستان النورى الكبير الذى أنشأه السلطان نور الدين محمود بن زنكى بدمشق [١] والبيمارستان العتيق الذى أنشأه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، والبيمارستان المنصورى (قلاوون) الذى أنشأه السلطان قلاوون وكلاهما بالقاهرة ، وكلها من مفاخر آثار هؤلاء السلاطين التى حفظها لهم التاريخ ، ومنها البيمارستان المنصورى لايزال قائماً الى هذه الساعة يؤدى خدمته للانسانية ويشهد بالفخار والعظمة والقدرة وحب الخير لصاحبه .

النظام الفنى للبيمارستان

كان فى كل بيمارستان قسمان منفصلان بعضهما عن بعض : قسم للنساء وقسم للرجال[٢] وكل قسم مجهز بما يحتاجه من آلة وعدة وخدم وقراشين من الرجال والنساء وقوام ومشارفين ولهم المعاليم .

وكل قسم من هذين القسمين ينقسم الى عدة قاعات : قاعة للأمراض الباطنة ، وقاعة للجراحة وقاعة للكحاله وقاعة للتعبير [٣] وكان قسم الأمراض الباطنة ينقسم الى قاعات أخرى : قاعة للمحمومين [٤] وهم المصابون بالحمى ، وقاعة للمحرورين وهى لمن بهم المرض المسمى مانيا وهو الجنون السبعى [٥] وقاعة للمبرودين (أى المتخومين) ولمن به إسهال قاعة وللمجانين قاعة الخ ؟

(للبحث بقية)

احمد عيسى

(١) انظر هذين البيمارستانين فى ما يأتى :
(٢) أنظر بيمارستان قلاوون ص ٣١٠ أصيبعه ج ١
(٣) ص ٢٤٣ أصيبعة ج ٢
(٤) ص ٢٤٣ أصيبعة ج ٢ و ص ٢٥٤ أصيبعة ج ١
(٥) ص ٢٦٠ أصيبعة ج ٢